خالد فراج

الانتفاضة الأولى: الأمل وخيبة الأمل

جلب الصهيونيون معهم تجربة معسكرات الاعتقال الجماعية والعقاب الجماعي، من أوروبا خلال حكم النازية لألمانيا، وطبقوا هذه السياسة خلال حرب ١٩٤٨، ضد الفلسطينيين، وخصوصاً المدنيين منهم.

على أن التجربتين الأكثر تميزاً، كانتا أولاً، خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢، حين أقام الجيش الإسرائيلي معسكر "أنصار" للاعتقال الجماعي، والذي زجّت فيه آلاف الشبان، وثانياً، خلال الانتفاضتين الأولى والثانية في فلسطين، عندما أقامت عدة معسكرات اعتقال، كان أحدها معسكر "أنصار ٣" في سجن النقب، وعنه تتحدث هذه المقالة.

في ظهيرة أحد أيام الأسبوع الأول من نيسان/أبريل ١٩٨٨، لاحظنا من داخل أقسام سجن النقب (أنصار ٣) استنفاراً غير مسبوق للجنود والآليات، وبعد قليل شاهدنا طوافات تحوم فوق المكان، وما هي إلاّ لحظات حتى دخل إلى القسم الذي كنت موجوداً فيه، عشرات الجنود والضباط والحراس بلباس مدني.. كان الضيف الكبير الذي جاء لتفقّد السجن هو وزير الحرب الإسرائيلي يتسحاق رابين الذي ذاع صيته في حينه بسبب سياسة تكسير الأطراف التي انتهجها في مسعاه لإخماد الانتفاضة وإيقافها.

وقفنا في طوابير ننظر إلى هذا الضيف الذي لم يكن مرحباً به أو مرغوباً فيه، فهو نفسه سبب وجودنا هنا في الصحراء كسجناء وليس كسيّاح أو صيادين، وهو نفسه الذي أشرف على الحملة التي اقتلعت عائلتي وسكان مدينتي "اللد" في سنة ١٩٤٨، إذ إنه كضابط تنفيذي، أصدر الأمر بإخلاء المدينة من سكانها بعد المجازر التي ارتُكبت في شوارعها، وبعد اجتياحها المفاجئ من طرف كتيبة المغاوير رقم ٨٩ بقيادة موشيه دايان التابعة للواء الثامن.

نظر إليّ رابين وسألني عن عمري فقلت له سبعة عشر عاماً، فقال: "ماذا تفعل هنا؟" أجبته أن الجنود أتوا بي إلى هذا المكان، فردّ قائلاً إن جنوده لا يعتقلون الأبرياء، وإنني قمت برشق الحجارة وشاركت في فاعليات الانتفاضة، ولذلك أنا معتقل هنا.

لم يكن هذا الحوار القصير مع وزير إسرائيلي سهلاً بالنسبة إليّ، فقد كنت خائفاً ومرتبكاً

ومحمّر الوجه وأتصبب عرقاً، لكنني استمدّيت بعض القوة في حديثي معه عندما شاهدت شقيقي في الصف المقابل، وشعرت بضرورة أن أكون متماسكاً، لا لسبب، إلاّ لأثبت لشقيقي أنني أصبحت رجلاً وأستطيع المواجهة.

خلال جولته التفقدية، رافقه اثنان من المعتقلين الذين يتحدثون العبرية، وكانوا ينقلون إليه مشكلات السجن ومطالب الأسرى. استعطف أحدهما رابين مشيراً إلى أن أوضاع السجن قاسية وكميات الأكل قليلة واللحوم فاسدة وهناك حاجة إلى مزيد من السجائر والأكل والمياه وتحسين أوضاع الاعتقال عامة، أمّا الآخر فتناول الموضوع السياسي والحقوقي وسأله أمام الأسرى: "إلى متى سيبقى هذا السجن الذي يفتقر إلى الحد الأدنى من مقومات الحياة وحقوق الإنسان؟" كما تحدث عن الانتفاضة كحق للشعب الفلسطيني في مواجهة الظلم والاحتلال، فردّ رابين بأنه ما دام هناك انتفاضة فإن كتسيعوت (الاسم العبري للسجن) سيظل، فأجابه السجين ما دام هناك كتسيعوت هناك انتفاضة.

انقسم الأسرى حيال النقاش الذي جرى مع رابين: قسم أيّد النقاش السياسي المتعلق باستمرارية الانتفاضة، وقسم آخر ذهب إلى ضرورة تحسين أوضاع الاعتقال المعيشية وليس الحقوقية. وهذا الانقسام في الرأي ليس جديداً، فالحركة الأسيرة خاضت هذا النقاش في مواجهتها المستمرة مع مصلحة السجون، ومع ذلك، فإن المطلب السياسي والقانوني الذي رافق نضال الحركة الأسيرة ينطلق من اعتبار الأسرى الفلسطينيين أسرى حرب، وتنطبق عليهم اتفاقية جنيف الرابعة.

"سنوات الأمل"

افتُتح سجن (أنصار ٣) في آذار/مارس ١٩٨٨ بسبب عجز السجون الإسرائيلية عن استيعاب مئات الأسرى الفلسطينيين الذين كان يجري اعتقالهم يومياً منذ اندلاع الانتفاضة الأولى. لم أكن بطلاً من أبطال الانتفاضة، أو قائداً ميدانياً لأحد مواقعها، أو زعيماً سياسياً في أحد الأحزاب أو الحركات السياسية، فقط كنت أحد ناشطيها الفاعلين. ففي تلك الأيام تبلور وعيي السياسي وفهمت أن المخيم الذي نشأت فيه ليس مكاناً طبيعياً، إنه محصلة جريمة كبيرة ارتُكبت قبل نحو أربعين عاماً اسمها النكبة، وما المخيم وحياة البؤس والفقر إلاّ من تجلياتها البسيطة.

المبادرة الشعبية التي دخلت القاموس السياسي والإعلامي العالمي باسم الانتفاضة، عُرفت فيما بعد باسم الانتفاضة الأولى ـ والترقيم هنا يعود إلى اندلاع انتفاضة في سنة ٢٠٠٠، والتي اصطُلح على تسميتها الانتفاضة الثانية.

وبعد ثلاثين عاماً نكتشف كم تغيرت الأشياء، فالحائط الذي كنا نكتب شعارات الانتفاضة وقرارات قيادتها عليه لم يعد منبراً ووسيلة، وإنما حل محله حائط افتراضي في "الفايس بوك"، كما أن المنشور الورقي التحشيدي، أو بيانات قيادة الانتفاضة والأحزاب، لم يعودا أداة متداولة يتعين على مَن يوزعها أن يتلثم بالكوفية الفلسطينية خشية اعتقاله من طرف سلطات الاحتلال، بل باتت وسائل التواصل الاجتماعي (فايس بوك وتويتر وإنستغرام وغيرها) هي البديل، ولم يعد الليل والشوارع والميادين والأحياء والجبال هي الأوقات والأمكنة الأمثل لممارسة الأنشطة الانتفاضية.

وعليه، فإن مخاطر توزيع منشور أو الكتابة على الجدران، وكذلك الملاحقة والاعتقال أو القتل والإصابة لم تعد موجودة، وبات ما يحتاج إليه أي شخص لعرض فكرة سياسية أو توزيع بيان أو منشور تحريضي، هو جهاز كمبيوتر أو حتى أحد الأجهزة اللوحية أو الهواتف الذكية المنتشرة بين أيدينا اليوم ليصل إلى الآلاف خلال ثوانٍ معدودة. وهكذا لم تعد المسألة بحاجة إلى كثير من العناء والمخاطرة للوصول

إلى الناس، ومع ذلك، فإن وسائل التواصل الاجتماعي لم تعد آمنة بالكامل، ذلك بأن المحاكم العسكرية الإسرائيلية أضحت تحاكم على أساس ما يُنشر في هذه الصفحات، كما أنه جرى تشكيل وحدة جديدة في الجيش لمراقبة ما يُنشر وتحليله، ثم تنفيذ اعتقالات مرتبطة به.

والمفارقة الغريبة أنه فضلاً عن الجداريات والمناشير وإغلاق الطرق لإعاقة قوات الاحتلال عند اقتحام ومداهمة القرى والمدن والمخيمات والأحياء، وعلاوة على تنظيم التعليم الشعبي رداً على سياسة التجهيل التي مارستها سلطات الاحتلال مع أول أشهر الانتفاضة الأولى، فإن رفع علم فلسطين على أعمدة الكهرباء والبنايات العالية كان التحدي الأكبر، لأن مَن يُضبط وهو يفعل ذلك يُسجن ويحاكم أمام محاكم عسكرية.

مع أن الانتفاضة الأولى لم تحقق أهدافها بالتحرر والخلاص من الاحتلال، فإن رفع العَلَم أصبح متاحاً ومسموحاً به، ولا سجن ومحاكم عسكرية لمَن يرفعه، إنها حقاً مفارقة غريبة!

> **لا صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة**
>
> **نداء... نداء... نداء**
>
> يا جماهير شعبنا العظيم، أحفاد القسّام وإخوة ورفاق أبو شرار وخالد نزال وكنفاني، يا شعب الانتفاضة المجيدة...

كان هذا النداء رقم ٢ الذي أطلقته القيادة الوطنية الموحدة، والذي يدعو الجماهير إلى تصعيد الفعل الانتفاضي والمقاومة ضد المحتل. وقبل ذلك بيومين تم توزيع نداء وُقّع باسم القوى الفلسطينية الوطنية، دعا إلى التمسك بالوحدة الوطنية وتصعيد العمل الانتفاضي.

كان النداء رقم ٢ يعكس حالة تنظيمية استوعبت حجم الانتفاضة وعمقها، وأنها لم تكن مجرد هبّة، ففي هذا البيان طالبت القيادة الموحدة بوقف سياسة القبضة الحديدية، وتحريم انتهاك المقدسات، وإخراج شارون من البلدة القديمة في القدس، كما طالبت الجيش الإسرائيلي بالانسحاب من مراكز المدن، وحل مختلف اللجان البلدية والمحلية المعينة من قبل الإدارة المدنية وسلطات الاحتلال، وإطلاق معتقلي الانتفاضة، وإغلاق معتقلات الفارعة والظاهرية وأنصار ٢ وأنصار ٣.

وفي البيان نفسه دعت القيادة إلى إغلاق الشوارع وإحراق إطارات السيارات، وإلى رفع الأعلام والتمرد على أوامر منع التجول. واختُتم البيان بـ:

> ليعرف كل العالم أن بركان الانتفاضة الذي أشعله شعب فلسطين لن يتوقف إلاّ بإنجاز الاستقلال بدولة فلسطينية عاصمتها القدس.

قمت مع رفاقي بتوزيع هذا البيان في الشوارع والأزقة وفي القرى المجاورة بمنتهى الاندفاع والحيوية، وراقبنا الناس في صباح اليوم التالي، يقرأون النداء وهم في قمّة النشوة، وكنا ننظر إلى وجوه الناس ونكاد نقول لهم بغرور أننا نحن مَن وزّعه.

ليلة الخامس من آذار/مارس ١٩٨٨

مضى على اندلاع الانتفاضة نحو ثلاثة أشهر وقد اتسعت رقعتها، وكان للمخيمات في الضفة الغربية وقطاع غزة الحضور الأوسع في الانتفاضة التي باتت تقلق الوسطَين السياسي والعسكري الإسرائيليين، وخلال تلك الأشهر الثلاثة احتل "الجلزون"، أحد مخيمات الضفة الغربية، صدارة الإعلام الدولي والعربي والإسرائيلي، إذ استطاع شبان المخيم وشاباته تشكيل نموذج وحدوي للعمل الانتفاضي عبر تشكيل اللجان بمختلف أنواعها من اللجان الشعبية ولجان المساعدات ولجان التعليم ولجان التنمية ولجان تنفيذ قرارات القيادة الموحدة للانتفاضة، وعملت جميع هذه اللجان بتنسيق وانسجام عاليَين مبنيَّين على وعي سياسي راكمته التجربة القديمة للحركة الوطنية في المخيم. وإلى جانب هذه اللجان واظب أهالي

المخيم بفصائلهم المتعددة على الاشتباك اليومي مع جنود الاحتلال الذين أقاموا المواقع والنقاط العسكرية على أطراف المخيم، وطوال الأشهر الثلاثة الأولى لم يتمكن الاحتلال من اقتحام المخيم على الرغم من عشرات المحاولات التي نفذها، فيقظة لجان الحراسة كانت تحول دائماً دون الاقتحام، فبمجرد أن يسمع الشبان أو يلاحظوا حركة غريبة لسيارات عسكرية أو مدنية تبدأ التكبيرات والأصوات المتفق عليها بين الشبان لتفشل محاولة الاقتحام.

أمر وزير الحرب الإسرائيلي يتسحاق رابين الذي سيتوّج فيما بعد بطلاً وهمياً على عرش جائزة نوبل للسلام، جنوده وضباطه في شباط/فبراير ١٩٨٨، بتكسير أطراف الشبيبة المنتفضة في شوارع الضفة الغربية وقطاع غزة، وكان هذا القرار بالنسبة إلى الجنود والضباط بمثابة هدية، فلم يتوانوا عن تكسير أطراف الصبية في مختلف المناطق، وكانوا يتباهون بما يفعلون، كما كان الفيديو الذي التُقط لجنود يقومون بتكسير عظام شبان بالحجارة والعصي خير شاهد على متعة الجنود.

وأمر قائد المنطقة الوسطى (الضفة الغربية) في جيش الاحتلال، عمرام متسناع ـ الذي سيصبح "حمائمياً" فيما بعد كرئيس لبلدية حيفا ومرشح لرئاسة الحكومة الإسرائيلية عن حزب العمل في سنة ٢٠٠١ ـ جنوده بتنفيذ قرار وزير الحرب رابين. والمفارقة هنا أن العديد من الذين كسّروا عظام أطفالنا أصبحوا فيما بعد دعاة سلام وحمائم، وهذا التوصيف لا يقتصر على رابين ومتسناع فحسب، بل على كثير أيضاً من رؤساء المؤسسة الأمنية وقادتها الذين شرعوا، بعد تسريحهم من الخدمة، في البحث عن مستقبل سياسي عبر خطاب سلمي حمائمي.

قاد متسناع حملة عسكرية على مخيم الجلزون في ٥ آذار/مارس ١٩٨٨ على رأس مئات الجنود الذين داهموا المخيم مع ساعات الفجر الأولى، وذلك بعد أن فرضوا طوقاً عسكرياً على التلال المطلة عليه وعلى مداخله. وتجدر الإشارة إلى أن ذاك اليوم كان يوم سبت، أي أنه، وفق مفاهيم ناشطي الانتفاضة، يوم عطلة في إسرائيل، وأن الجيش نادراً ما يقوم بعملية واسعة، الأمر الذي يدفع الناشطين إلى التراخي في حذرهم.

شنّ الجنود الإسرائيليون، بالتنسيق مع قوى الاستخبارات، حملة عسكرية على المخيم داهموا فيها معظم البيوت، واستمرت العملية حتى عصر ذلك اليوم، وانتهت باعتقال نحو ٣٠٠ شاب من شباب المخيم جرى احتجازهم بداية في مدرسة وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، ثم وُزِّعوا على السجون في شمال الضفة الغربية وجنوبها. إن اعتقال هذا العدد من الشبان من مخيم صغير، يعني أن معظم العائلات اعتُقل أحد أبنائها في ذلك اليوم. وقد مارس الجنود في أثناء عملية الاعتقال أبشع أنواع التعذيب والضرب المبرح بحق الشبان، كأن الأمر انتقام شخصي منهم ضد الشبان الذين كُسرت أيدي وأرجل بعضهم.

وأطلق جنرالات الجيش الإسرائيلي التصريحات المتفائلة بعد هذه الحملة، مهللين بأن الانتفاضة، أو أعمال الشغب على حد قولهم، انتهت بفضل الحملة على مخيم الجلزون، وأن استخدام القوة المفرطة هو السبيل إلى عودة الهدوء إلى "المناطق".

لكن سرعان ما عاد المخيم ليشتعل من جديد بعد تجمّع مَن لم يُعتقل، فاشتعلت جذوة الانتفاضة من جديد، كما أن كثيرين من الشبان الذين لم يكن لهم أي نشاط سياسي انخرطوا بعد هذه الحملة في الأنشطة الانتفاضية في داخل المخيم.

كنتُ أحد معتقلي حملة متسناع

في ٥ آذار/مارس ١٩٨٨، أمضيت ليلتي في منزل أحد الأصدقاء خشية الاعتقال، فقد كنت أتوقع أن يكون اسمي ضمن قائمة أسماء طويلة يحملها الجنود ـ وتسمى قائمة المطلوبين

Pongo ـ وخصوصاً بعدما داهم الجنود منزلي مرة لاعتقالي لكني لم أكن موجوداً، ومنذ ذلك الحين لم أعد أنام في المنزل خشية الاعتقال.

لم يكن صباح ٥ آذار/مارس ١٩٨٨، كأي صباح، فقد استيقظت على أصوات كسر باب المنزل الذي كنت نائماً فيه، وإذا بعشرات الجنود المدججين بأسلحتهم يدخلون إلى المنزل. سألني أحد الجنود عن اسمي فحاولت التملص بذكر اسم أبي واسم جدي من دون أن أقول اسمي الأول واسم عائلتي، لكن هذه المحاولة لم تمر على الجنود، فقد تنبّه إلى وجودي في ذلك المنزل ضابط الاستخبارات "ماهر" الذي سبق أن اعتقلني قبل هذا التاريخ بنحو شهرين ونصف شهر من منزلي، وكان ذلك بعد أقل من عشرة أيام على اندلاع الانتفاضة. وما هي إلاّ لحظات حتى عُصبت عيناي ورُبطت يداي خلف ظهري، وبدأت الهراوات تنهال عليّ، وصيحات: "مخرب، راشق حجارة"، من الجنود تبرر لهم ضربي بهراواتهم وأيديهم.

اقتادني الجنود تحت ضرب الهراوات معصوب العينين ومكبل اليدين بشريط بلاستيكي في سيارة عسكرية إلى ساحة مدرسة ذكور المخيم، حيث ألقوا بي أرضاً، ولم أكن قادراً على التحرك لأن الشريط البلاستيكي كان يشد على معصمي عند أدنى محاولة للحركة. لكن على الرغم من ذلك، استطعت، في ساحة المدرسة، أن أرى قليلاً من تحت العصبة، وما شاهدته وسمعته كان مفاجئاً ومذهلاً، فهذا الاعتقال لم يستهدفني مع مجموعة صغيرة من شبّان المخيم، بل شمل العشرات.. لا بل المئات من أبناء المخيم ومن جميع القوى السياسية ومن جميع الأعمار، حتى إن الحملة شملت كبار السن وضمنهم كان مدير المخيم (بحسب تصنيفات الأونروا)، وكان الكل ملقى على الأرض مقيد اليدين ومعصوب العينين تثقله هراوات الجنود الذين كانوا يتفقدون المعتقلين في الساحة بضربهم ومنعهم من الكلام مع بعضهم البعض. وكان الشبان يزعجون الجنود بطلباتهم المتكررة للذهاب إلى قضاء الحاجة أو شرب الماء، ودائماً كان رد الجنود بالمنع أو الضرب، حتى إن بعض الجنود كان يقول للمعتقلين أن يتبول في لباسه، ومنهم مَن فعل تجنباً للضائقة.

لم أكن خائفاً، بل إن معنوياتي ارتفعت عندما رأيت هذا العدد الكبير من المعتقلين، واعتقدت أنه اعتقال للتسلية مع الأصدقاء الذين ميّزتهم من أصواتهم، أو من رؤيتهم من تحت العصبة.

الذي أخافني وحطّ من معنوياتي ووضعني في مزاج عصبي حاد وجعلني قلقاً وعدائياً حتى في حديثي مع الجنود، هو أنني استطعت أن أميز بين المعتقلين شقيقي الأكبر الذي يكبرني بأربعة عشر عاماً، والذي لم تكن علاقتي به مجرد علاقة بأخ، وإنما احتل مكانة الوالد بعد وفاة والدي عندما كنت طفلاً لم يتجاوز العامَين من العمر، فقد كنت أخشاه وأحسب له مئة حساب في حياتي اليومية، فكيف ستكون الحال في داخل السجن؟ اعتقدت أن وجودي إلى جانبه في السجن سيقلل من حريتي، وخصوصاً أنني كنت أسرق اللحظات لأدخن وكان يمنعني بقسوة؛ هذا إلى جانب الشعور بالألم، فرؤية أخي، هذه الشخصية القوية والمتماسكة، معصوب العينين ومكبّل اليدين ويركله الجنود بقسوة بين الحين والآخر، حزّت في نفسي، وتألمت لأنني لم أستطع مساعدته؛ تألمت لألمه، وانتابني شعور بتأنيب الضمير إذ اعتقدت أن الجيش ذهب إلى منزلنا لاعتقالي وعندما لم يجدني اعتقله، كما تألمت لألم والدتي التي ستعاني الأمرّين، فنحن أربعة أشقاء وشقيقة: واحد مغترب، والثاني في سجن عسقلان يقضي حكماً بالسجن لستة أعوام، واثنان اعتُقلا صباح ذاك اليوم.

إلى جنوب الضفة الغربية (معتقل جديد)

منذ الاعتقال في ساعات الفجر الأولى رُبطت أيدينا وعُصبت أعيننا ولم تُفك إلاّ عند منتصف

الليل، وكنا قد أمضينا الوقت نتلقى الهراوات والشتائم من الجنود الذين لا يجيدون من اللغة العربية سوى الكلام البذيء.

أمضينا أكثر من ١٤ ساعة في الحافلات، ونحن لا نعرف الوجوه ونتهامس ونتحزر إلى أي معتقل نحن ذاهبون، وماذا سيفعلون بنا وما هو نوع الاعتقال: هل سنذهب إلى أقبية التحقيق كمقدمة لتقديمنا إلى المحاكم، أم إلى الاعتقال الإداري، أم الاعتقال الاحترازي لعدة أيام نعود بعدها إلى بيوتنا؟ الكل استبعد الاعتقال الاحترازي، فلا بد من أن هذه الحملة الواسعة لها هدف معين، وفي حالتي استبعدت الاعتقال الإداري فأنا ما زلت صغير السن - بمفاهيم الاحتلال القانونية - كما أن الاعتقال الإداري غالباً ما كان يطاول قادة الصف الأول من الحركة الوطنية، فاستقر الرأي على أنني سأذهب إلى أحد مراكز التحقيق.

في ساعات الليل وصلت الحافلات إلى بلدة الظاهرية جنوب الضفة الغربية، وتحديداً إلى معسكر فيه مبنى شيدته سلطات الانتداب البريطاني كمركز للقيادة، ويتضمن إسطبلات للخيول.

نزلنا من الحافلات مقيّدين ومعصوبي الأعين، واصطف على يسارنا ويميننا جنود يحملون الهراوات ومهمتهم هي ضربنا بقسوة، وكانوا يصيحون: "أنتم انتفاضة أم أنتم فوضى؟" تلقيت عشرات الضربات، ووجدت نفسي ملقى في ساحة السجن الرئيسية. لم يكن شقيقي الكبير في الحافلة نفسها التي كنت فيها، واعتقدت أنهم ذهبوا به إلى سجن آخر، وفي الساحة سمعت صيحات شقيقي، وسمعت الجنود ينهالون عليه بالضرب بقسوة؛ تأثرت جداً بسماع صوته يتألم وبدأت أشتم الجنود الذين هاجموني وضربوني بقسوة، الأمر الذي اضطرهم إلى نقلي إلى عيادة المعسكر، بعدما سالت الدماء من أنفي، وفي العيادة هاجمني الممرض والطبيب.

لا يمكن وصف الحالة الهستيرية للجنود الذين خلت قلوبهم من أي رحمة، تجاه أشخاص مكبّلين ومعصوبي الأعين، فالجندي والمجندة والضابط والممرض والطبيب كلهم شارك في ضربنا بوحشية.

لم يكن سجن الظاهرية مهيئاً كسجن، فقد جرى افتتاحه في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٨٧، أي بعد ١٢ يوماً من اندلاع الانتفاضة، ولم أكن جديداً عليه، إذ كنت قد اعتُقلت ليلة ٢١ كانون الأول/ديسمبر من السنة قبلها، في ليلة ماطرة، وجرى اقتيادي إلى ذاك السجن مدة ١٨ يوماً احترازياً، وكنت أحمل الرقم ٤٤، دلالة على أنني كنت النزيل الرابع والأربعين في هذا السجن

كانت أول وجبة طعام في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، في ١٩٨٨/٣/٦، وكانت مكوّنة من قطعة خبز ومربى. وقد وُضعنا في إسطبلات الخيول، ولا أبالغ إذا قلت إن عدد مَن كانوا معي في الإسطبل رقم ١ تجاوز الستين معتقلاً في مكان ضيّق لا يتسع لأكثر من عشرة أشخاص، وطبعاً لا يوجد منافع صحية في الإسطبل، وكان المرحاض عبارة عن برميل غطّاه المعتقلون ببطانية.

كان الحطّ من إنسانيتنا وكرامتنا مقصوداً ومدروساً، فنحن بالنسبة إليهم كنّا قادة الانتفاضة وناشطيها، وإخمادها يجري عبر هزّ بنيتنا الداخلية ودفعنا إلى التفكير في أنفسنا، وليس في قضيتنا وحقوقنا الوطنية.

مُنعت زيارات الأهالي والمحامين ومندوبي اللجنة الدولية للصليب الأحمر، واستمر احتجازنا في هذا السجن حتى ٢٤ آذار/مارس، في أوضاع غير إنسانية على الإطلاق، حتى إنه لم يسمح لنا بالاستحمام سوى مرة واحدة فقط ومن دون توفير غيارات داخلية.

إلى أقصى جنوب فلسطين (سجن النقب/أنصار ٣/كتسيعوت)

صعدنا إلى الحافلات معصوبي الأعين ومكبّلي الأيدي لا نعرف إلى أين ستكون الوجهة الجديدة، لكن اللافت أن الجنود في الحافلة التي

أقلّتنا كانوا أقل وحشية. كانت الوجهة من الظاهرية جنوباً، حيث لا يوجد بعدها إلاّ صحراء النقب الفلسطينية، ثم الحدود المصرية، وهنا بدأ الأسرى يتكهنون بأن الوجهة هي نحو الحدود المصرية، وبأن الجنود سيلقون بنا خارج الحدود وهو ما كان يُصطلح عليه بالإبعاد إلى خارج الوطن، والذي كان يستهدف عدداً من الناشطين.

أخيراً وصلت الحافلة إلى معسكر إسرائيلي كبير جداً اسمه كتسيعوت، أو ما اصطُلح على تسميته فيما بعد "أنصار ٣"، أمّا "أنصار ٢" فكان قد أقيم في وقت سابق في غزة، وأُطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى المعتقل الكبير الذي أقامه الجيش الإسرائيلي في قرية أنصار في جنوب لبنان خلال الاجتياح الإسرائيلي في سنة ١٩٨٢، وزج فيه آلاف الفلسطينيين واللبنانيين.

في النقب، حيث الأسلاك الشائكة والخيام المنصوبة وأبراج المراقبة والحرس والمساحات الصحراوية الشاسعة والرمال والشمس الحارقة في النهار والبرد القارس ليلاً. واجهنا، فضلاً عن أوضاع الاعتقال القاسية، مشكلة عدم تأقلم أجسامنا مع الطقس الصحراوي، فمعتقلو سجن النقب قادمون بصورة عامة من جبال الضفة الغربية، أو ساحل قطاع غزة، وغير معتادين على المناخ الصحراوي.

يوجد "كتسيعوت" يوجد انتفاضة، والعكس صحيح

إدارة سجن أنصار ٣ أو النقب، كانت بيد وحدات الجيش التي تفتقر إلى الحد الأدنى من الخبرة في إدارة السجون أو إدارة سجناء مدنيين، فعلى سبيل المثال كان الضباط يدخلون إلى أقسام السجن بسلاحهم الشخصي ومعهم عشرات الجنود من الحراس المسلحين والمتأهبين لإطلاق النار في أي لحظة كأنهم في ميدان القتال. وعند عدّ السجناء ثلاث مرات في اليوم كانت دبابات الميركافا تتحرك بمحاذاة كل قسم تجري عملية العدّ فيه، الأمر الذي يعني أن أي حالة اشتباه قد تسمح للجندي بفتح النار على مئات المعتقلين الجالسين للعدّ فيقتل العشرات منهم.

في أنصار ٣ لم يكن هناك مكتبة كما في السجون القديمة التي تديرها مصلحة السجون، والكتاب الوحيد الذي كان موجوداً هو القرآن الذي جرى إدخال عدة نسخ منه عن طريق الصليب الأحمر، كما أُدخل إلى السجن الشطرنج وطاولة الزهر "النرد". وكان المعتقلون يمضون كثيراً من الوقت نياماً سواء في ساعات الليل أو في ساعات النهار، والأمر الوحيد الذي كان ينغّص ساعات النوم هذه هو "العدّ" ثلاث مرات في اليوم: واحدة في ساعات الصباح الباكر وبها يعكر نوم الصباح، والثانية وقت القيلولة، والثالثة في ساعات المساء، هذا عدا الاقتحامات المتكررة لأغراض التفتيش، وأحياناً للتنغيص علينا فقط.

كان المعتقلون يمضون ساعاتهم وأيامهم في لعب النرد والشطرنج ويشكلون الفرق ويجرون المباريات. وفي ساعات المساء، عندما تخف وطأة الحر، يتمشون في ساحة السجن، وتكون أحاديثهم بصورة عامة عن الانتفاضة ومصيرها، أو عن بطولاتهم، أو عن تجارب اعتقالاتهم السابقة، وكانوا يجرون المقارنات بين السجون وأوضاع الاعتقال في مختلف المناطق والأزمنة.

مع هذه الأوضاع القاسية كلها، كان عدد المعتقلين الذين يعكسون جواً من الإحباط والندم وقلة الثقة بالنفس وبالمستقبل والخوف قليلاً، وكانت النكتة داخل السجن تعكس جواً من المعنويات المرتفعة والمرح، كأن هؤلاء الشبان مشاركون في مخيم صيفي وليس في معسكر اعتقال. وأحد أسباب هذا التماسك المعنوي يكمن في أن عدداً لا يستهان به من المعتقلين كان من الأسرى المحررين في صفقة تبادل الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة في سنة ١٩٨٥، وهؤلاء

في معظمهم كانوا من قيادات الصف الأول للحركة الوطنية الفلسطينية، الأمر الذي ساهم في تماسك المعتقلين الجدد، وخصوصاً الشباب الصغار، أو الأشبال كما كان يُطلق عليهم.

وأذكر أن أحد المعتقلين المحررين، الذي أمضى نحو خمسة عشر عاماً في الأسر، أعلن إجراء مسابقة "مَن يصطد ألف ذبابة يحصل على سيجارة"، وبدأ المدخنون الشرهون بمحاولة اصطياد الذباب الذي كان ينغّص حياتنا، ذلك بأن إدارة السجن لم تكن توفّر المبيدات للتخلص منه ومن غيره من الحشرات.

انتفاضة النقب امتداد للانتفاضة

في الأسبوع الأول من وجودنا في الصحراء تم تبليغنا أننا معتقلون إداريون بقرار من قائد المنطقة الوسطى ووزير الأمن، وأنه يحق لنا الاستئناف على قرار الاعتقال الإداري، وجرى نصب كرفانات بعيدة بعض الشيء عن أقسام السجن، كانت بمثابة مقر المحكمة العسكرية. وكانت مداولات محاكم الاستئناف بمثابة مسرحية هزلية يقودها ضابط في الجيش وظيفته أن يقول للمعتقل: إن الملف السري الخاص بك يشير إلى أنك تهديد على أمن المنطقة، ولذا فإن استئنافك مرفوض. وبالتالي، لا يكون للمحامي الذي لا يحق له الاطلاع على محتويات الملف السري أي حول ولا قوة. وفي بعض الأحيان كانت الاتهامات الموجهة إلى الأسرى في محاكم الاستئناف المصرح بها منافية للمنطق.. إذ هل يُعقل أن يُتهم أبكم بالتحريض بمكبرات الصوت؟ وهل يُعقل أن يُتهم مُقعَد بإلقاء الحجارة؟ أو يُتهم أمّي يجهل القراءة والكتابة بكتابة الشعارات؟!

استمر احتجازنا من دون السماح للأهالي بأي زيارات، وبالكاد زارنا المحامون لينقلوا إلينا سلامات الأهل وأخبار الانتفاضة، وخصوصاً أن إدارة السجن رفضت إدخال الصحف والمذياع، ومع ذلك تحايل بعض المعتقلين على الحراس، واستطاعوا الحصول على الصحف العبرية التي كانت تترجم على مسامع الجميع. علاوة على ذلك كان بعض المعتقلين الذين يعملون في مرافق السجن أو التنظيف، يبحث في النفايات عن صحف قديمة، وقام بعضهم بسرقة مذياع أحد الجنود، الأمر الذي اعتُبر كنزاً داخل السجن، فكان وجود هذا المذياع النافذة الوحيدة إلى العالم الخارجي.

ومن خلال الصحف المهربة سمعنا خبر اغتيال خليل الوزير أبو جهاد في تونس، في ١٦ نيسان/أبريل ١٩٨٨، وأن شوارع الضفة الغربية وقطاع غزة تشتعل رداً على جريمة الاغتيال، وقبل ذلك بعدة أيام وتحديداً في ١٢ نيسان/أبريل أعدمت سلطات السجون أحد المناضلين الفلسطينيين في زنزانته مدّعية أنه انتحر، وهذا القائد واسمه إبراهيم الراعي، كان قد تعرض لأبشع أنواع التعذيب خلال التحقيق معه. بعد هذين الاغتيالَين حاول المعتقلون في السجن تصعيد حدّة المواجهة مع الإدارة، لكن الأوضاع لم تكن ناضجة بعد.

جاء حزيران/يونيو وتموز/يوليو وآب/أغسطس، أي أشهر الحر القائظة، وبدأت الحشرات والزواحف والأفاعي تظهر وتشكل خطراً وتهديداً على حياة المعتقلين، وكانت الإدارة تتحكم في كمية المياه التي تُصرف لأقسام السجن، فيكون المعتقل محظوظاً إذا أُتيح له الاستحمام مرة في الأسبوع، أمّا مياه الشرب فكانت قليلة جداً وساخنة.

كنا في القسم "أ"، وعلى بعد أقل من كيلومتر واحد كان القسم "ب" الذي يضم أكثر من ألف معتقل، جزء منهم من معتقلي قطاع غزة؛ وقرر قائد السجن وكان يُدعى "دافيد تسيمح" أن يشغِّل المعتقلين في مرافق لا علاقة لها بالسجن والسجناء، منها بناء الجدران والأسلاك الشائكة، وطلب من ممثلي السجناء أن يبدأوا بتشغيل المعتقلين، الأمر الذي رُفض رفضاً قاطعاً، فلم يرق الأمر لقائد السجن وضباطه، وبدأت مرحلة جديدة من العقوبات الجماعية والتحدي بين

إدارة السجن والمعتقلين.

في ١٦ آب/أغسطس ١٩٨٨ أمر قائد السجن باقتحام خيام المعتقلين، وطلب من الأسرى الامتثال للتفتيش، وبطريقة مستفزة سأل قائد السجن: "هل يوجد رجل بينكم؟" وإذ بشاب لم يبلغ العشرين من عمره يقول له: "أنا رجل ماذا تريد؟" وهنا أخذ قائد السجن بندقية أحد الحرس الواقفين إلى جانبه وأطلق النار من دون أي تحذير على صدر الشاب أسعد الشوا من مدينة غزة وأرداه على الفور، فهبّ شاب آخر من مدينة جنين اسمه بسام السمودي لمساعدة رفيقه، فما كان من قائد السجن إلاّ أن أطلق النار عليه أيضاً وأرداه على الفور.

انتفضت جميع أقسام السجن وتحولت إلى ساحات مواجهة بين الجنود والمعتقلين استخدم خلالها الأسرى الحجارة القليلة المتوفرة في ساحات الأقسام والأحذية وقطع الصابون، بينما أطلق الجنود الرصاص المطاطي والغاز المسيل للدموع.

وتشكلت لجان تحقيق دولية وأُخرى إسرائيلية، استدعت شهوداً من المعتقلين إلى المحكمة العليا الإسرائيلية.

بعد انتفاضة النقب جرى التخفيف ـ ولو ضمن الحد الأدنى ـ من أوضاع الاعتقال القاسية، وسُمح للأهل بزيارة أبنائهم، وتحسّن الطعام بعض الشيء، وبدأت الوفود الدولية ـ وخصوصاً اللجنة الدولية للصليب الأحمر ـ بزيارة السجن، وكذلك بعض نواب الكنيست الإسرائيلي، الأمر الذي أدى بطريقة أو بأُخرى إلى وضع إطار رقابي يحد من الانتهاكات التي تمارسها إدارة السجن بحقّ المعتقلين.

شوارع الانتفاضة مرة أُخرى

أُفرج عني وعن شقيقي في منتصف أيلول/سبتمبر ١٩٨٨، وكانت زوجة شقيقي وضعت قبل موعد الإفراج بشهر مولودها الثاني، وكنا قد علمنا بهذا النبأ من خلال أحد المحامين الذي زار شقيقي، فكانت فرحته غير مسبوقة مع أنه داخل السجن، وشاركه المعتقلون فرحته وباركوا له من دون أن يستطيع تقديم الحلوى إليهم كما جرت العادة.

صعدنا إلى الحافلات مكبّلين ومعصوبي الأعين مع أن الوجهة كانت إلى منازلنا، وذلك لأن المنطقة التي كنا نُحتجز فيها تُعتبر منطقة عسكرية مغلقة. ومع أننا مكبّلون، إلاّ إن ذلك لم يكن له أي معنى، لأن وجهتنا هي المنزل.. وهي حريتنا.. وهي الانتفاضة مرة أُخرى، والتي منحتنا الأمل، وتصعيدها سيمنحنا مزيداً من الأمل.

في أثناء الوضع الطبيعي يحتاج المرء إلى ساعتين ونصف ساعة كي يقطع المسافة بين الظاهرية ورام الله، لكنه مع اشتداد عنفوان الانتفاضة وعنف قمع سلطات الاحتلال لها، قطعنا المسافة في خمس ساعات، بسبب انتشار حواجز التفتيش التي نصبها الجيش الإسرائيلي، أو المتاريس التي وضعها ناشطو الانتفاضة.

وبدأت بيانات قيادة الانتفاضة التي تدعو إلى تصعيد الانتفاضة، وتدعو العملاء إلى التوبة والعودة إلى شعبهم، بمطالبة التجار بعدم دفع الضريبة إلى سلطات الاحتلال، وبالعصيان المدني.

خرجتُ من السجن وكان النداء رقم ٢٥ قد وُزّع على الجماهير في الضفة الغربية وقطاع غزة، وطالبت القيادة الموحدة للانتفاضة الجماهير بإحياء الذكرى السادسة لمجزرة صبرا وشاتيلا، كما طالبت بمناسبة إعلان حكومة عموم فلسطين في سنة ١٩٤٨، بتوطيد سلطة الشعب عبر بناء مزيد من اللجان الشعبية، على طريق إعلان الاستقلال الناجز لدولتنا العتيدة، ثم دعت القيادة إلى يوم للتضامن مع المؤسسات التعليمية المغلقة، وإلى إضراب شامل تضامناً مع المعتقلين ومطالبة بإغلاق أنصار ٣.

لم يكن هناك مجال للراحة بعد الاعتقال، فالجو مملوء بالحركة والعمل، وبالرغبة في الخلاص، وهناك قناعة بقرب تحقيق الأهداف،

ولذا انخرطت مع المفرج عنهم حديثاً في فاعليات الانتفاضة بحيث اتسعت رقعة النشاط من المخيم إلى أرياف رام الله وأحيائها.

شهر واحد بين الإفراج عني وبين مداهمة الجيش لمنزلي مرة أُخرى بحثاً عني، الأمر الذي دفعني إلى التواري وعدم المكوث في المنزل، والالتحاق بجيش المطلوبين من شبان الانتفاضة.

لم تتراجع فاعليات الانتفاضة، وإنما أخذت رقعتها تتسع في الأرياف والمدن والقرى، وبدأت خبرة الشبان المنتفضين بالتراكم، فعندما تشن السلطات حملات اعتقال بحقّ المنتفضين تلقائياً كان هناك مَن يسد الفراغ، وهكذا لم ينشأ تراخٍ أو تراجع لفاعليات الانتفاضة، على الأقل في عامَيها الأول والثاني.

العيون تتجه إلى العاصمة الجزائرية

في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨ أعلن ياسر عرفات خلال انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر، قيام دولة فلسطين: "فإن المجلس الوطني يعلن، باسم الله، وباسم الشعب العربي الفلسطيني، قيام دولة فلسطين فوق أرضنا الفلسطينية، وعاصمتها القدس الشريف."

كان ذلك الإعلان بمثابة انتصار لنا ـ نحن شبيبة الانتفاضة ـ فقد شعرنا بأن العالم سمع بنا وبدأ يساند نضالنا، وخصوصاً بعد أن بدأت عدة دول تعلن تأييدها لإعلان الجزائر، فقد بلغ عدد الدول التي أيدت الإعلان واعترفت بدولة فلسطين ١٠٥ دول.

وكنّا مجموعة من الشبان موجودين في أحد الجبال القريبة من رام الله، نسمع المذياع ونحصي ونعدّ الدول التي تعترف بإعلان الجزائر، وكنّا نصفق وتعلو صيحاتنا عندما تعلن هذه الدولة أو تلك اعترافها بدولة فلسطين.

شددت سلطات الاحتلال قبضتها يوم إعلان الجزائر، وفرضت حظر التجول على جميع المناطق الساخنة في الضفة والقطاع، وأعلنت الضفة الغربية منطقة عسكرية مغلقة، لكن ذلك لم يمنع الأهالي من الاحتفال من على شرفات منازلهم بالزغاريد والأغاني والقرع على الطناجر والطبول. كانت الفرحة تعلو وجوه الناس ومعنوياتهم مرتفعة، على الرغم من قسوة الأوضاع المعيشة، إذ قاربت الانتفاضة على إطفاء شمعتها الأولى وهي في ذروة زخمها وعطائها.

لم أشتق إلى رفاقي في النقب، ولم أشأ أو أرغب في العودة إلى هناك، لكن كميناً لفرقة مستعربين لم أستطع الإفلات منه، أخذني إلى الاعتقال الإداري في النقب مرة أُخرى.

وعندما عدت إلى أنصار ٣، وجدت أن كثيراً من الأوضاع تغير إلى الأفضل ولو بشكل طفيف، وكان ذلك بفضل نضالات المعتقلين وإضراباتهم المتتالية عن الطعام، وبفضل حركة التضامن الكبيرة معهم خارج السجن، فضلاً عن أن القيادة الموحدة للانتفاضة واظبت على ذكرهم والمطالبة بالإفراج عنهم.

عندما عدت وجدت أن إدارة السجن وضعت مكبرات صوت كانت تنقل لنا البثّ من المذياع ثلاث مرات في اليوم، لكن على صوت إسرائيل بالعربية فقط: البرنامج الصباحي أخبار وبعض الفيروزيات؛ برنامج الظهيرة أخبار لمدة ساعة؛ برنامج المساء نشرة أخبار وأغنية لأم كلثوم التي كان يصدح صوتها عبر مكبرات الصوت في صحراء مترامية الأطراف.

واكتشفت أن إدارة السجن سمحت بإدخال بعض الكتب التي كانت تخضع للرقابة، كما جرى إدخال كرة الطاولة إلى كل قسم، وشبكة لكرة الطائرة، وتحسّن الطعام بعض الشيء، وسُمح بإدخال البريد الذي كان يوزَّع مرة في الأسبوع، علماً بأن إدارة السجن كانت تستخدم الرسائل كشكل من أشكال العقاب، فتارة تسمح بدخول البريد وخروجه وتارة لا تسمح.

بقيت أربعة أعوام على هذه الحال: عدة أشهر خارج السجن، وستة أو تسعة أشهر في الاعتقال الإداري.

لم تكن الانتفاضة بأعوامها الثلاثة الأولى وردية، كما يظهر في كثير من الأدبيات أو الروايات الشفهية أو الشهادات، وإنما شابها عدة سلبيات شوّهت صورتها: دور السينما أُغلقت خلال أعوام الانتفاضة في كل من رفح وجنين ورام الله وبيت لحم؛ قَتْل العملاء افتقد في كثير من الحالات مسوّغات وطنية وتحوّل في بعض الأحيان إلى عمليات ثأرية؛ الفصائل أغرقت البلاد بالأموال وأصبح ذلك عنواناً للفساد والسرقات، كما أن جزءاً من المساعدات لم يصل إلى مستحقّيه وأصحابه؛ بعض ناشطي الانتفاضة، وبالاتكال على شرعيتها، باتوا يشكلون عصابات ترغم العباد على دفع الخوّات؛ فئة كبار التجار ـ وعلى الرغم من تضحياتها ـ استفادت بصورة كبيرة من مقاطعة الانتفاضة للمنتجات الإسرائيلية، وتحكمت في أسعار المنتجات الفلسطينية؛ جزء من أصحاب المصانع الذين تلقوا كثيراً من المساعدات من قيادة منظمة التحرير تعويضاً عن خسائرهم وعن الأضرار التي لحقت بهم، لم يعطوا شباب الانتفاضة حقهم في وظائف كريمة وتحكموا فيهم وفي قُوتهم، وخصوصاً أن قسماً من الشباب الذين كان يُعتقلون كان يسرَّح من عمله، الأمر الذي ينطبق أيضاً على الجرحى وعلى عائلات الشهداء.

ومع ذلك، فإن انتفاضة ١٩٨٧ التي اندلعت كمبادرة شعبية أساسها فكرة الخلاص من الظلم والقهر المنظم الذي مارسه الاحتلال طوال ثلاثة عقود، ستبقى المرحلة الأكثر إشراقاً في التاريخ الفلسطيني، وذلك على الرغم من الأعوام العجاف التي تلتها، والتي تُوّجت بالحكم الذاتي وأظهرته كإنجاز لهذه الانتفاضة التي حلمت وهدفت إلى ما هو أكثر من أوسلو.

إن حالة فقدان الأمل التي أنتجها اتفاق أوسلو، والتي رافقها حالة من اللامبالاة والتراخي في أوساط الشباب الفلسطيني، لم ولن تمنع الأجيال الجديدة من المحاولة من جديد مرة وعشرات المرات، وما الحراكات الشبابية التي تنتفض بين الحين والآخر هنا وهناك من إسقاط برافر، إلى بناء قرية باب الشمس، إلى هبّة الشباب في شوارع الضفة الغربية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥، إلاّ إشارة إلى عدم فقدان البوصلة. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل ـ ٨)

الفكر الصهيوني في متاهات التجديد والتحديث

جدلية التناقضات الداخلية وانعكاساتها العملية

أمل جمال

٩٨ صفحة ٨ دولارات